مختارات من النصوص الأدبية
في العصر الحديث

أ . د/ محمد مختار جمعة مبروك
أستاذ الأدب والنقد
والعميد الأسبق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
جامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد ،

فهذه نخبة مختارة من النصوص الأدبية، اخترتها لبعض أعلام الشعراء والكتاب في العصر الحديث، وقدمت لكل نص منها بما يهيئ للإقبال عليه، ويحمل على تذوقه، وقد حاولت أن أكون بعيدًا كل البعد عن الحشو والتعقيد، وأن أجنب الدراسة ما لا يتصل بروح النص؛ راجيًا أن أجتذب بذلك القارئ إلى تذوق أدبهم شعرًا ونثرًا ، وأن أسهم في صقل الذوق الأدبي لدى شداة الأدب وطلابه .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت، وأن تكون هذه المحاولة جادة، و أن تكون بداية لمزيد من دراسة النصوص الأدبية وتحليلها، وإبراز ما في تراثنا الأدبي و لغتنا العربية من سحر وأسرار بيانية وجمالية.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اللغة العربية لحافظ

الشـاعــر:

هو ابن النيل وشاعره محمد حافظ ابن المهندس إبراهيم فهمي، أحد المهندسين المشرفين على قناطر ديروط.

وكان والده مصريًا صميمًا، أما أمه فهي السيدة/ هانم بنت أحمد البورصة لي، من أسرة تركية عريقة محافظة، كانت تسكن حي المغربلين بالقاهرة، وتُعرف بأسرة ((الصروان))؛ لأن جد حافظ لأمه كان يعمل أمين الصرة في الحج، فلقب بالصروان؛ أي: القيِّم على الصرة[1].

وقد ولد حافظ إبراهيم في سفينة ذهبية كانت راسية على شاطئ النيل أمام مدينة ديروط، حيث كان والده مقيمًا بهذه السفينة، وكان ذلك إرهاصًا لطيفًا، وإيماء طريفًا، إذ شاء القدر ألا يولد شاعر النيل إلا على صفحة النيل.

ولم توجد لحافظ شهادة ميلاد يعتمد عليها يعتمد في التأريخ لمولده، غير أن الرواة يذكرون أنه عندما تقدم للتعيين في دار الكتب قُدِّر سنه في اليوم الرابع من شهر فبراير سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف من

(١) الصرة: هي المال الذي كانت الحكومة المصرية تبعث به إلى الأقطار الحجازية في موسم الحج، معونة لساكني الأراضي المقدسة، بعضه هبة، وبعضه من ريع الأعيان المصرية الموقوفة على الحرمين الشريفين. انظر: مقدمة ديوان حافظ/ لمحمد إسماعيل كاني: ص١٩.

الميلاد – بتسع وثلاثين سنة ، وبناء عليه اعتبر بعض الكتاب تاريخ ميلاده وهو اليوم الرابع من شهر فبراير سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وألف من الميلاد .

ولم يعش حافظ في كنف والده سوى أربع سنوات، مات بعدها والده ، فعادت به أمه من ديروط إلى القاهرة، فكفله خاله المهندس محمد نيازي الذي كان يعمل مهندسًا بتنظيم القاهرة.

وبلغ حافظ السن الذي تؤهله لدخول المدرسة، فألحقه خاله بالمدرسة الخيرية بحي القلعة بالقاهرة، ثم التحق بالمدرسة القربية الابتدائية، و تحول بعدها إلى مدرسة المبتديان، ثم المدرسة الخديوية، وهما من المدارس الثانوية.

وشاء القدر أن ينتقل خاله إلى طنطا فانتقل معه حافظ، وهناك ألحقه خاله بمدرسة طنطا الثانوية لاستكمال دراسته، لكنه انصرف عن الدراسة بهذه المدرسة إلى حلقات الدرس بالجامع الأحمدي بطنطا، لأن ما كان يتلقاه بمدرسة طنطا كان لا يتفق وميوله الطبعية، وقد ألفى ما يلائمها في حلقات الجامع الأحمدي.

وأخذ حافظ يقرض الشعر وينظمه على نحو أثار إعجاب كثير من شيوخ الأدباء، وذواقي الأدب في مدينة طنطا، غير أن خاله لم يتقبل منه انصرافه عن الدراسة التي وجهه إليها، فزاد في تأنيبه وتقريعه، مما جعل حافظًا يهتاج، ويعزم على قطيعته، و يتوجه إليه بقوله :

ثقلت عليك مؤنتي إنـــي أراها واهيه
فافرح فإني ذاهب متـوجه في داهيه

وكان لابد لحافظ من وسيله يتكسب بها، ويتقوت منها، فالتحق بمكاتب بعض المحامين، واشتغل محاميًا عند بعضهم، غير أن صناعة المحاماة لم تعد على حافظ بما كان يتمناه من كسب، فهجرها، قائلا- عند تركه مكتب محمد الشيمي بك-:

جِرابُ حَظِّيَ قَد أَفرَغتُهُ طَمَعًا ... بِبابِ أُستاذِنا الشيمي وَلا عَجَبا

فَعادَ لي وَهوَ مَملوءٌ فَقُلتُ لَهُ: ... مِمّا؟ فَقالَ: مِنَ الحَسراتِ واحَرَبا

ثم التحق حافظ بالمدرسة الحربية، وتخرج فيها سنة ١٨٩١م، وعمل ضابطًا في الجيش، ثم نقل إلى الشرطة التي كانت تستمد ضباطًا من الجيش آنذاك، ثم أعيد إلى الجيش، وسافر إلى السودان في الحملة الأخيرة التي كانت بقياده اللورد «كتشنر» وخدم حافظ بالسودان ما يقرب من عامين، وفي سنة ١٨٩٩م قامت ثورة في السودان اتهم فيها ثمانية عشر ضابطًا، وكان من بينهم حافظ إبراهيم، فحوكموا وأحيلوا إلى الاستيداع، ثم عاد حافظ ليعمل ملازمًا بإدارة التعيينات، ثم أحيل إلى الاستيداع مرة أخرى، فالتمس إحالته إلى المعاش سنة ١٩٠٣م، فأجيب إلى طلبه.

وكان حافظ - في أثناء إقامته بالسودان- يراسل الشيخ محمد عبده شعرًا ونثرًا، فلما اعتزل العمل بالحكومة، التحق بدروس الإمام ومجالسه، وتعرف من طريقه على الطبقة الممتازة من أبناء الشعب من أمثال: مصطفى كامل، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ومحمود سليمان، و غيرهم.

وكان لاحتكاك حافظ بسائر طبقات الشعب، وتقلبه بين فئاته المختلفة أثر واضح في شعره الذي عبر عن آمال أمته وآلامها، يقول عنه أحمد أمين: وميزة حافظ الكبرى أنه تبلورت في شعره آمال أمته أولا، وآمال الشعب العربي ثانيًا، كانت الأمة تشكو من فوضى الأخلاق، وظلم الاحتلال، وتضييق الشرق والغرب، وكان حافظ بما له من حس مرهف، وعاطفة جياشة، ونفس شاعرة، يجمع كل ذلك في نفسه ثم يخرجه شعرًا قويًا ملتهبًا، يفعل في النفوس ما لا تفعله الخطب والمقالات، فكان حافظ –حقًا– شاعر الوطنية، وشاعر الشعب، شاعر السياسة والاجتماع، ولم يجاره في ذلك أحد من شعراء عصره[1].

وأخيرًا استقر المقام بحافظ، فعينه المرحوم/ أحمد حشمت باشا وزير المعارف – رئيسًا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، وقد ظل حافظ في عمله بدار الكتب حتى أحيل للمعاش سنة ١٩٣٢م، غير أن هذه الوظيفة وإن كانت قد كفته الحاجة، وأخرجته من دائرة البؤس– فإنها قد كبلت شعره بالقيود والأغلال، وأدت إلى نضوبٍ في معينه الشعري، إذ كان حافظ حريصًا على بقائه في عمله، فهو لا يقول شعرًا يغضب أحدًا من ذوي السلطان، خشية أن يزحزحوه عن منصب، أو ينالوه بأذى، فكان أكثر شعره في هذه الفترة هو شعر الرثاء وشعر المناسبات، وما قاله فيها من الشعر السياسي فهو هادئ لين، أو في ظروف تحميه، ولعل أيام بؤسه الأولى رَوَّعته وأفزعته حتى قامت شبحًا دائمًا أمام عينيه تنذره بالويل والثبور وعظائم الأمور، إن هو أصيب في منصبه

(١) انظر : مقدمة ديوان حافظ لأحمد أمين ص ٧٧ .

أو مس في مرتبه، مما جعله حريصًا عليه ضنينًا به، يقول د/ طه حسين: "كان بؤس حافظ في نفسه شرطًا لاتصال شعره، ونمو بلوغه، كان حافظ محتاجًا إلى أن يظل بائسًا، ليرى بؤس الشعب من حوله، وليحسه، وليصوره ولكن حافظًا غني بعد فقر، واطمأن بعد اضطراب، فهدأت نفسه، ثم اشتد بها الهدوء، فضاق بالحياة، وضاقت به الحياة.

وليت حافظًا وقد فقد البؤس- الذي كان سبيله إلى المجد – لم يفقد الحرية، فقد كان يستطيع مع الحرية أن يجد له في القول مذهبًا، ولكن الموظفين في مصر عبيد مهما تكن الحكومات القائمة، يجب أن يقدروا لأرجلهم موضعًا قبل الخطو، وألا يقولوا إلا بمقدار.

ولا تكاد الحرية ترد إلى حافظ بإحالته إلى المعاش حتى يتنفس، وإذا هو قد اتصل بالشعب من جديد، وإذا هو يتأهب ليتفجر، وليرسل زفرات الشعب نارًا مضطرمة تلتهم ما حولها، ولكنه شيخ قد تقدمت به السن، وذهبت بقواه الراحة في دار الكتب" [1] .

ولعل أثر الخوف الذي لازمه في أثناء وظيفته ظل عالقًا بنفسه بعد إحالته للمعاش، إذ كان قد ألف حب الأمن واعتاده، مما جعله ينظم بعض القصائد ثم لا يقوى على نشرها ، خشية السجن الذي لم يكن ليتحمله مع تقدم سنه[2].

---

(١) حافظ وشوقي للدكتور/ طه حسين ص ١٨١، ١٨٢ .

(٢) انظر: مقدمة ديوانه لأحمد أمين ص ٦٩.

وكان حافظ يُلم باللغة الفرنسية، فمكنه ذلك من الاطلاع على شيء من آدابها، وقد ترجم ((البؤساء)) لفيكتور هوجر ، وترجم بعض قطع ((لجان جاك روسو))، واشترك مع خليل مطران في ترجمة كتاب ((موجز الاقتصاد)) وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الإنجليزي، لكنه-على كل حال- لم ينل حظًا وافرًا من الأدب الغربي، ولم يكن أثر ذلك كبيرًا في شعره، فقد جاء شعره - في جملته- نتاج الأدب العربي، والثقافة العربية، والتجارب الشخصية[1].

وكانت وفاة حافظ في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٣٢م[2].

(١) المرجع السابق ص ٨٢ .

(٢) انظر: شاعر النيل حافظ إبراهيم/ لعبد المنعم شميس ص٤، (سلسلة كتابك، عدد ١٤٩) .

النـــــص

رَجَعْتُ لنفســـي فاتَّهَمْتُ حَصَاتي
وناديــتُ قَــوْمي فاحْتَسَبْتُ حَيَاتي[1]
رَمَوْني بعُقْمٍ فـــي الشَّبَابِ وليتني
عَقُمْتُ فلــم أَجْـــزَعْ لقَوْلِ عُدَاتي[2]
ولَدْتُ ولمّا لـــم أَجِـــدْ لعَرَائسي
رِجَـــــالاً وَأَكْفَــاءً وَأَدْتُ بَنَـاتي[3]
وَسِعْتُ كِتَـــابَ الله لَفْظَاً وغَايَةً
وَمَـا ضِقْتُ عَـــنْ آيٍ بهِ وَعِظَاتِ[4]
فكيفَ أَضِيقُ اليومَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
وتنسيـــقِ أَسْمَـــاءٍ لمُخْتَــرَعَاتِ

(١) رجعت لنفسي: فكرت وتأملت. الحصاة: العقل والرأي، واتهمت حصاتي: أسأت الظن برأيي وعقلي. احتسبت حياتي: عددتها عند الله فيما يُدخر .

(٢) العقم:عدم الإنجاب، وكنَّى به هنا عن ضيق اللغة وجمودها. عقمت: لم أنجب، والمراد: انتهيت واندثرت قبل تلقي هذه الطعنات.

(٣) العرائس: جمع عروس، والمراد بها هنا: الألفاظ المجلوَّة الحسنة. الأكفاء: جمع كفء وهو النِّد والنظير.

(٤) وسعت كتاب الله: اتسعت له، فأصبحت بكتاب الله – تعالى– لغة معجزة خالدة. لفظًا: أي: بلاغة. غاية: تشريعًا وأخلاقًا.

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدرُّ كَامِــنٌ
فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتي[1]
فيا وَيْحَكُمْ أَبْلَى وَتَبْلَى مَحَاسِـني
وَمِنْكُــــم وَإِنْ عَزَّ الدَّوَاءُ أُسَاتي[2]
فلا تَكِلُوني للزَّمَـــــانِ فإنَّــني
أَخَـــافُ عَلَيْكُمْ أنْ تَحِينَ وَفَاتي
أَرَى لرِجَالِ الغَرْبِ عِـــزًّا وَمِنْـعَةً
وَكَــمْ عَزَّ أَقْـــوَامٌ بِعِـــزِّ لُغَاتِ[3]
أَتَوا أَهْلَهُمْ بالمُعْجِـــــزَاتِ تَفَنُّنًا
فَيَـــــا لَيْتَكُـمْ تَأْتُونَ بالكَلِمَاتِ
أَيُطْرِبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ نَاعِبٌ
يُنَــادِي بوَأْدِي في رَبِيعِ حَيَاتي[4]

(١) الغواص: السباح الذي يغوص في الماء، والمراد: العالم الخبير باللغة، الصدفات: اللآلئ النفيسة، جمع صدفة (بفتح الصاد والدال). وهي غشاء اللؤلؤ. والمراد بالصدفات هنا: أسرار اللغة وسحر جمالها.

(٢) ويحكم: كلمة ترحم، وتوجع، وقيل: هي بمعنى ويل، ويقال: ويحٌ له، وويحًا له، وويحه. الأُساة: جمع آس، وهو الطبيب أو المعالج.

(٣) المنعة: العز والقوة .

(٤) أيطربكم: أيعجبكم فتسمعوا لقوله وتستجيبوا له. الناعب: المصوِّت بما هو مُستكره. ربيع الحياة: أيام الشباب والقوة.

وَلَوْ تَزْجُــرُونَ الطَّيْــرَ يَوْمَاً عَلِمْتُـمُ
بمَـــــا تَحْتَهُ مِنْ عَثْرَةٍ وَشَتَــاتِ[1]
سَقَى اللهُ فــي بَطْنِ الجَزِيرَةِ أَعْظُمَاً
يَعِزُّ عَلَيْــهَا أَنْ تَلِيـــــنَ قَنَــاتي[2]
حَفِظْنَ وَدَادِي فــي البلَى وَحَفِظْتُهُ
لَهُنَّ بقَلْبٍ دَائِمِ الحَسَـــــــرَاتِ[3]
وَفَاخَرْتُ أَهْلَ الغَرْبِ، وَالشَّرْقُ مُطْرِقٌ
حَيَاءً بتـــــلكَ الأَعْظُمِ النَّخِرَاتِ[4]
أَرَى كُلَّ يَــوْمٍ بالجَـــــرَائِدِ مَزْلَقَاً
مِنَ القَبْــرِ يُدْنيـــــني بغَيْرِ أَنَاةِ[5]

(١) زجر الطير: هو أن ترمي الطائر بحصاة أو تصيح به، فإن ولاك في طيرانه ميامنه تفاءلت به، وإن ولاك مياسره تشاءمت به، وقد نهى الإسلام عن ذلك، والمراد: أنهم لو استنبأوا الغيب لعلموا ما يجره عليهم هجر اللغة العربية ومحاربتها من تفرق وانحلال. العثرة: الزلة والسقوط.

(٢) أعْظُمًا: أعْظُم من دفن بالجزيرة من العرب الأولين. القناة: الرمح، ولينها كناية عن ضعفها، والمراد: ضعف اللغة واضطرابها.

(٣) البلى: المراد به الزمن القديم الذي مضى وانتهى.

(٤) النخرات: البالية المتفتتة .

(٥) مَزلقًا: موضعًا للسقوط والزلل، يقال: زلقت قدمه إذا زلت ولم تثبت. الأناة: التأنِّي والإبطاء، وعدم التَّروي.

وَأَسْمَعُ للكُتّابِ في مِصْـــرَ ضَجَّةً
فَأَعْلَـــــمُ أنَّ الصَّائِحِينَ نُعَــاتي[(١)]
أَيَهْجُرُني قَوْمي – عَفَا اللهُ عَنْهُمُ–
إِلَى لُغَــــةٍ لـــم تَتَّصِـلْ برُوَاةِ[(٢)]
سَرَتْ لُوثَةُ الإفْرَنْجِ فِيهَا كَمَا سَرَى
لُعَابُ الأَفَاعِي في مَسِيــــلِ فُرَاتِ[(٣)]
فَجَاءَتْ كَثَوْبٍ ضَـمَّ سَبْعِينَ رُقْعَةً
مُشَكَّلَةَ الأَلْـــــــوَانِ مُخْتَلِفَاتِ
إِلَى مَعْشَرِ الكُتّابِ وَالجَمْعُ حَافِلٌ
بَسطْتُ رَجَائي بَعْدَ بَسْطِ شَكَاتي[(٤)]
فإمَّا حَيَاةٌ تَبْعَثُ المَيْتَ في البلَى
وَتُنْبتُ في تِلْكَ الـرُّمُوسِ رُفَاتي[(٥)]
وَإِمَّا مَمَاتٌ لا قِيَامَـــــــةَ بَعْدَهُ
مَمَـاتٌ لَعَمْرِي لَمْ يُقَـــسْ بمَمَاتِ

---

(١) النُعاة: جمع ناعٍ، وهو المخبر بالموت .

(٢) لم تتصل برواة: لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغيير، والمراد أنها لا تتصل بالأصالة العربية العريقة.

(٣) اللوثة (بالضم): الحبْسة في اللسان. لعاب الأفاعي: سمها. الفرات: الماء العذب .

(٤) شكاتي: شكوتي واستغاثتي .

(٥) تبعث الميت: تحييه. الرموس: جمع رمس، وهو القبر. الرفات: الحطام والفتات من كل ما تكسر واندق، واندق، وما يبقى من عظام الجسد بعد الموت.

بين يدي النص:

(أ) الإسلام واللغة:

كان لنزول القرآن الكريم باللغة العربية أثر عظيم في توطيد دعائمها، وتوسيع نطاقها، وامتداد سلطانها، فقد صارت -بفضل نزول القرآن بها- لغة ذات دين سماوي، بل لغة أعظم الأديان وأبقاها إلى قيام الساعة، وأخذ المسلمون ينظرون إليها على أنها جزء لا يتجزأ من دينهم، يقول عمر بن الخطاب ﷺ: ((تعلموا العربية فإنها من دينكم))، ويقول ابن تيمية: إن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يُفهم إلا باللغة العربية؛ وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقد علل يوهان فك لخلود العربية بقوله: إن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم -أيًّا كانت لغته الأصلية- جزءًا لا ينفصل عن حقيقة الإسلام.

ويقول يوهان فك : فبفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أُحِل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى.

وبلغ حب المسلمين للعربية - لغة دينهم- مبلغًا يُعبر عنه البيروني الخوارزمي بقوله: ديننا واللغة العربية توأمان، والله لأن أُهَجَى بالعربية أحب إليَّ من أن أمدح بالفارسية، ولذا لم نجد أمة من الأمم حفظت فى صدورها من اللغة مقدار ما حفظه المسلمون من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

(ب) جو النص:

تعرضت اللغة العربية للحروب وطعنات متعددة من أعدائها تارةً، ومن بعض أبنائها أُخرى، وإن الطعنات التي توجه إليها من بعض أبنائها لأشدُّ وأعتى من طعنات أعدائها. وقد تبنَّى محاربة العربية أناس فتنوا ببريق الحضارة الغربية وزخارفها المادية، فأخذوا يرددون مع أرباب هذه الحضارة القول بأن التشبث بالفصحى يعوق مسيرة التقدم والرقي، ويُعد واحدًا من أقوى الأسباب التي أدَّت إلى تخلف أمتنا وتأخر مكانتها بين الأمم، متناسين أو متجاهلين أن حضارتنا العربية الإسلامية قادت العالم وأضاءت ربوعه قرونًا طويلة، وأن أبناءها قادرون على مواصلة المسيرة لو أن الله هيَّأ لهم من أمرهم رشدًا.

وقد رأى حافظ اللغة العربية تتعرض لنكبات متعددة، فقد فُرضت اللغة الإنجليزية على التعليم في مصر، وحلت محل اللغة العربية في قاعات الدرس، فقد رأى «اللورد كرومر» أن الشعب المصري لا يمكن أن يقبل الاستعمار الإنجليزي إلا إذا أقبل على الثقافة الإنجليزية وانصرف عن هويته العربية الإسلامية، ولكنه أخفق في محو هوية المصريين الثقافية واللغوية، فقد نظر المصريون إلى اللغة الإنجليزية على أنها لغة الغاصب المحتل، وانصرفوا عن مدارسه.

وفي هذه الموجة المسمومة لم تترك الفصحى وسيلة للتعبير خارج قاعات الدرس لتنهض وتنمو، وتصل المصريين بالماضي العربي المشرق والتراث الإسلامي المجيد، وتجمعهم وإخوانهم العرب في كتلة قوية متماسكة وإنما ظهرت دعوات خبيثة من خبراء الاستعمار وأتباعهم، وأخذت هذه الدعوات

تهاجم الفصحى، وتَنْسِب المصريين إلى العجز والتخلف بسببها، وقد ألقى المبشر الإنجليزي ((وليم ولكوكس)) محاضرة تحت عنوان ((لِمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين؟)) زعم فيها أن الذي عاق المصريين عن الاختراع هو استخدام اللغة العربية الفصحى في القراءة والكتابة ، ودعا إلى التأليف بالعامية.

وهكذا تتابعت الدعوات الهدامة فبعضها يدعو إلى اللهجة العامية، وبعضها يدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، وبعضها يدعو إلى ما يُسمى باللغة الوسيطة، وبعضها يدعو إلى ما يُسمى بالأسلوب اللبناني التوراتي، وبعضها يدعو إلى ترك عمود الشعر، وهى – في جملتها– تهدف إلى ضرب الإسلام في لغته، مما أثار حفيظة الغيورين على دينهم ولغتهم – لغة القرآن الكريم– فهبوا للدفاع عنها، والذود عن حياضها، وفي أثناء هذه المعارك الطاحنة برز حافظ إبراهيم، وانبرى للدفاع عن لغته في هذه القصيدة[1].

(١) راجع في هذه القضية: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ج ٢ ص٣٤١– ٣٦٨، ط مكتبة الآداب سنة ١٣٧٥هـ– ١٩٥٦م، ومن قضايا اللسان العربي للأستاذ الدكتور/ السيد رزق الطويل ج٢ ص ١٨٤– ٢٢٥، ط دار الهدى للطباعة سنة ١٤١٢هـ– ١٩٩١م، والاتجاه الإسلامي في ديوان حافظ: دراسة موضوعية وفنية للدكتور رفعت التهامي عبد البر، ص ٣٤ – ٣٥، ط/ السعادة ١٤١١هـ– ١٩٩١م.

تحليل الأبيات :

من (١-٦)

جرد حافظ إبراهيم من اللغة إنسانًا يتحدث عن نفسه، ويدافع عن كيانه، ويذود عن حماه، فيقول على لسان اللغة: إنني عُدت إلى نفسي، وفكرت فيما آل إليه أمري، فأسأت الظن بمقدرتي على التجدد ومسايرة ركب الحضارة والرقي، وناديت الناطقين بي ورجوتهم أن ينصروني فلم أجد منهم سميعًا أو مجيبًا، فادخرت حياتي واحتسبتها عند الله.

لقد اتهموني بالضيق والجمود، فذكروا أني عقيم لا ألد على أنني مازلت في ريعان شبابي، وليتني عقمت -كما قالوا- فلم أجزع لقولهم، أو آسى لتلك الطعنات التي تلاحقني.

أنا -في الواقع- لغة معطاءة متجددة، يظهر كل يوم سحر من أسحاري، وسر من أسراري، يحتاج إلى رجال يحفظونه، ويعرفون قدره، وسر جماله، وروعة بيانه، غير أني لم أجد أكفاء لألفاظي الحلوة المجلُوَّة، وتعبيراتي الرائعة الرائقة، فانطفأ بريق سحري، واختفت أسراري الجمالية حين عجزوا عن إدراكها أو إبرازها.

ولا أدلّ على قدرتي البيانية أو الجمالية من أنّي وسعت كتاب الله لفظًا وغاية، فقد جاء القرآن الكريم في أسلوب معجز، يحمل بين طياته أهدافًا سامية، وأخلاقًا فاضلة، وتشريعًا محكمًا، أو قل: جاء في نمط يهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة فلا تدري أجاءك من جهة لفظه أم من جهة معناه،

فلا يكاد اللفظ يصل إلى الأسماع حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب، وهذا هو النَّمط العالي على حد قول الإمام عبد القاهر الجرجاني[1]

وإذا كنت قد وسعت كتاب الله لفظًا وغاية فكيف أضيق اليوم عن وصف بعض الآلات، وتنسيق أسماء بعض المخترعات التي هي من صنع المخلوقين، ولو أنهم بحثوا أو نقبوا لوجدوا آلاف الكلمات العذبة الحلوة، والتعبيرات الجميلة الرائعة، التي تؤدي ما أرادوا وفق ما أرادوا، فأنا بحر مليء بالصدف واللؤلؤ غير أن هذه اللآلئ واليواقيت يعوزها غواص ماهر، وتحتاج إلى يد صناع تنقب عنها، وتخرجها، وتحسن استخدامها.

من (٧– ١٥)

تستغيث اللغة العربية بقومها وتسترحم الناطقين بها، وتستدر عطفهم، فإنهم قد قصروا في حقها، فأخذت تذوي بينهم شيئًا فشيئًا، حتى ذهبت محاسنها، وانطفأ بريق سحرها، فهي تستغيث بهم، وتطلب إليهم ألا يكلوا أمرها للزمان، فتجف منابعها، وتجمد قرائح أصحابها، وتحتبس ألسنتهم، فيضيع بضياعها تراثهم المجيد، وتندثر حضارتهم العريقة، لتقوم على أنقاضها لغة الغربيين وحضارتهم المادية.

وفي موازنة يسيرة بين الشرق والغرب، وموقف كل منهما تجاه لغته – يذكر حافظ أن الغربيين سادوا وعزوا لأنهم كانوا سدنة للغتهم، حافظوا

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني: ص٨٨– ٨٩ ، تحقيق محمود محمد شاكر، ط/ مطبعة المدني، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م.

عليها، وعكفوا على دراستها، وعملوا على إعلاء شأنها، مما قادهم إلى النهضة والحضارة والرقي في مجال المخترعات والمستحدثات، في حين قصَّر أهل الشرق في حق لغتهم، فعجزوا عن مواكبة النهضة الحضارية بلغتهم العربية الفصحى، وليتهم استطاعوا مجاراة هذه النهضة، فاستنبطوا واشتقوا من كنوز اللغة العربية ما يتلاءم وهذه النهضة من الألفاظ والتعبيرات العربية الرائعة.

وفي أسلوب استفهام إنكاري يقول حافظ على لسان اللغة: لا تخدعكم تلك الدعوات المعسولة التي تتردد على ألسنة أعدائي، تنادي بهجري وعزلي عن الحياة والأحياء، وتريد وَأْدي في ريعان الشباب، ولو استنبأتم الغيب أو زجرتم الطير لعلمتم ما يجره عليكم وَأْدي من عثرة وشتات، فلا شك أن ضياع اللغة العربية سيؤدي – حتمًا – إلى تفرق الأمة وصعوبة التفاهم بين أبنائها، كما أنه يحول بينهم وبين فهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

ويدعو حافظ على لسان اللغة لهؤلاء العرب الأوائل الذين حفظوا اللغة العربية، إذ كان يعز عليهم أن تضيع لغتهم أو تلين قناتها، ونحن نعلم أن كتابًا وصل عمر بن الخطاب من أبي موسى الأشعري وفيه لحن، فغضب عمر وأمر أبا موسى أن يضرب كاتبه سوطًا، وأن يؤخر عطاءه.

لقد أدى هؤلاء الأوائل حق لغتهم في العصور التي مضت، ولكن من أتوا بعدهم قد قصروا في حقها، ولم يحفظوا ودادها، فلم يبق لهم ولم يكن منهم سوى الحسرة والألم على ما صار إليه حالها، وهذا سلاح العاجز الضعيف.

وبحماتها الأوائل تفاخر اللغة العربية الغرب والشرق، وتنحني إجلالا وتقديرًا أمام عظامهم البالية، ورفاتهم المدفونة في جزيرة العرب.

من (١٦– ٢٣):

ولا يفوت حافظًا أن يذكر على لسان اللغة ما أصاب لغة الصحف من ضعف وركاكة، وما حل ببعضها من أخطاء فادحة، كما أن بعض هذه الصحف كصحيفة ((الجريدة)) التي كان يرأس تحريرها لطفي السيد وجريدة ((المقتطف)) التي كانت تصدر في لبنان – قد تبنت الدعوة للعامية، وكان للمقتطف باع طويل في هذا المجال، فقد كانت تتردد في بيروت تلك الأفكار التي دعا إليها المستشرق الألماني ((سبيتا)) الذي ألف كتابًا سماه ((قواعد اللغة العامية في مصر)) محاولا تقعيد أو تأصيل اللغة العامية؛ لتحل محل العربية الفصحى في التخاطب والدرس.

ومع ذلك لا تسمع اللغة للكتاب سوى ضجة جوفاء تودعها في أسى وحسرة، فتعلم أنهم إنما يودعونها إلى مثواها الأخير، إذ لا يجدي في مثل هذه المواقف الصراخ ولا العويل، إنما يكون الأمر في حاجة إلى حلول حاسمة، وخطوات علمية سريعة وملموسة.

ثم تعاتب اللغة العربية أبناءها الذين هجروها إلى لغة لم تتصل برواة ولا يربطها رابط بحضارتهم أو تراثهم العريق، وقد سرت فيها لوثة الإفرنج ورطانة العجم كما سرى لعاب الأفاعي في مسيل الماء العذب فأفسده ولوثه.

ولقد أصبحت اللغة –نتيجة لما تسرب إليها من لغات العجم– مهلهلة، ضعيفة النسج، كثوب ضم سبعين رقعة مختلفة الأشكال والألوان مما ذهب برونقه وجماله، وبدد حسنه وبهاءه.

وأخيرًا تناشد اللغة أقطاب الفكر وأرباب البيان أن يهبوا لنجدتها ويعملوا على إحيائها وبعثها من مرقدها، فإن حياة الأمة في إحيائها، وعز القوم ومجدهم في عزها ومجدها، وإلا ضاعت اللغة وكانت النهاية المؤلمة المريرة التي لا تقوم بعدها للغة ولا للأمة قائمة.

ولن تضيع -إن شاء الله- لغة شرفها الله بالقرآن الكريم، وربط وجودها بوجوده، وبقاءها ببقائه، وهو القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١) ويقول -سبحانه-: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(٢)

نظرات فنية وجمالية:

(أ) نفسية حافظ وأثرها في القصيدة:

نفسية حافظ حزينة مُفَجَّعَة، أحاط بها الشقاء من كل جانب، فقد انتاب حافظا كثير من الشدائد منذ حداثته، فقد مات والده وهو في الرابعة من عمره، ولم يترك له من المال ما يوفر له حياة كريمة أو متوسطة، فنشأ بائسًا في بيت خاله، ولم ينجح في المحاماة، وأصيب في منصبه فأحيل إلى الاستيداع، كما رمى الزمان أمته بالمستعمر الغاشم، ورمى العالم الإسلامي كله بالغرب يمتص دمه، ويسومه سوء العذاب. وكان لحافظ إلى هذا نفس شاعرة، وحس مرهف، فأثر كل هذا في نفسه أثرًا بليغًا؛ فأخذ يكثر من شكوى الزمان وشكوى الناس.

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩.

(٢) سورة الزخرف : الآية ٤٤.

فطبيعة حافظ مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجي، كان مظهره الخارجي ضحوكًا مرحًا، لا يراه الرائي حتى يضحك من ضحكه، ولا يكون في مجلس حتى يملأه سرورًا ومرحًا، ولكنه في أعماق نفسه حزين، كالشمعة تضيء وهي تحترق، أو كالممثل يجيد تمثيل الضحك وهو في نفسه يذوب ألمًا وحسرة.

ولا شك أن هذا الطبع الحزين يبعث عواطف حزينة، ويحمل على الإجادة فيها، فقد توافق طبعه وشكوى الزمان، والرثاء، والبكاء على الأمة المستعبدة، ونحو ذلك.[1]

وقد امتزج شقاء حافظ بشقاء أمته، ورأى من أثر الاحتلال في خروجه من وظيفته ما وضح له أثره في أمته، فهو طريد ((كتشنر)) من الجيش، وأمته طريدة الإنجليز من حقوقها الوطنية وحقائقها الإنسانية[2] ولغته مطاردة من المستعمر الغاشم الذي يريد القضاء عليها، فمحاولة النيل من اللغة –في نظر حافظ– واحدة من هذه المؤامرات التي كان يديرها الاستعمار للقضاء على الأمة العربية كلها، وهي تمثل حلقة في سلسلة المظالم التي كانت الأمة تتعرض لها، ولم ينج حافظ من آثارها.

---

(١) انظر : مقدمة ديوانه لأحمد أمين ص ٨٩.

(٢) انظر : دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور/ شوقي ضيف، ص ١٠، ط / دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٨ الطبعة الثامنة.

فحافظ عندما ينعي اللغة العربية فإنما ينعي نفسه، وينعي أمته، فالأسى يبعث الأسى، والشجا يبعث الشجا على حد قول متمم بن نويرة -في رثاء أخيه مالك:

يقولون تبكي كل قبرٍ رأيتـــه لقبرٍ ثوى بين اللّوى فا لدكاكك
فقلتُ له إن الشجا يبعثُ الشجا دعونـــــــى فهذا كلُّه قبر مالكِ

(ب) مدرسة حافظ الفنية وأثرها في هذه القصيدة:

ينتمي حافظ إبراهيم إلى مدرسة المحافظين أو مدرسة الإحياء والبعث التي يُعد محمود سامي البارودي رائدها وأستاذها، غير أن هذه المدرسة قد أخذت اتجاهين متمايزين هما [1]:

١- الكلاسيكية الاتباعية القديمة:

وقد عكف شعراؤها على دراسة التراث الأدبي والنقدي القديم في أزهى عصور الشعر العربي، فقلدوا: بشارًا، وأبا نواس، وأبا تمام، والبحتري، وابن الرومي، والمتنبي، وأبا العلاء، وغيرهم من فحول الشعراء، وذلك في الأغراض، والموضوعات، والأساليب، والصور، والخيالات.

ومن شعرائها: الساعاتي، والبارودي، وعلي الجارم، وإسماعيل صبري.

٢- الكلاسيكية الجديدة:

وهي التي حافظت على الوزن والقافية، والألفاظ والأساليب، والديباجة الشعرية، على النحو القديم، لكنها جددت في الموضوعات والأغراض، فقد تأثر

(١) انظر: من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية للأستاذ الدكتور/ علي علي صبح ص ١٠٤- ١٠٥ .

شعراؤها بعصرهم وبيئتهم؛ فعالجوا مشكلات عصرهم، وما يتصل بعالمهم العربي والإسلامي، معبرين عن روح عصرهم: سياسيًّا، واجتماعيًّا، وثقافيًّا، وفكريًّا، وخلقيًّا.

ومن شعرائها: شوقي، وحافظ، وأحمد محرم.

وحين ننظر في قصيدة اللغة العربية لحافظ نجد آثار مدرسته – الكلاسيكية الجديدة– واضحة غاية الوضوح، فالمحافظة واضحة في العناية بالأسلوب وبلاغته، وروعة التركيب، وجلال الصياغة الشعرية وبهائها، وانتقاء اللفظ واختياره، وخاصة أن حافظًا أقرب ما يكون إلى أنصار اللفظ الذين يعنون بألفاظهم وأساليبهم أكثر من عنايتهم بالمعاني والأفكار.(١)

والمعاني في القصيدة واضحة قوية، تتسابق إلى الذهن من غير كدٍّ أو طول تأمل، ذلك لوضوح الفكرة عند الشاعر، وقد استمد معانيه من حقل الشعر القديم فاتهام الحصاة، ووأد البنات، وسم الأفاعي في مسيل الفرات، وغير ذلك من المعاني يسير على النهج القديم.(٢)

وتظهر المحافظة –أيضا– في التزام وحدة الوزن والقافية، كما أن القصيدة قامت على وحدة البيت، بحيث يكون البيت وحده أو مع بضعة أبيات مستقلاً عن سائر الأبيات، فيمكن لك أن تقدم وتؤخر من غير أن يختل

---

(١) انظر: مقدمة ديوان حافظ لأحمد أمين ص ٩٠، والاتجاه الإسلامي في شعر حافظ للدكتور/ رفعت التهامي عبد البر ص ٤٦، ٤٧.

(٢) من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية للأستاذ الدكتور/ علي علي صبح ص ١١١.

نظام القصيدة، على أنها لا تخلو مع ذلك من وحدة الموضوع أو وحدة الجو النفسي.

أما التجديد فيظهر في اختيار موضوع القصيدة المستمد من الأحداث العصرية التي تعرضت لها اللغة العربية، وقد نسجت خيوطها في عصر الشاعر، وتحت سمعه وبصره.

كما يظهر التجديد في وحدة الموضوع، وقد تخلص الشعر من النمط التقليدي من الاستهلال بالغزل أو بكاء الطلل، فقد هجم حافظ على موضوعه مكافحة، وتناوله مصافحة من غير أن يقدم له بغزل أو بكاء طلل.

(ج) الصور الأدبية:

لعل أهم ما في هذه القصيدة هو عنصر التشخيص الذي أعطى القصيدة جدة وحيوية وابتكارًا، فقد جرد الشاعر من اللغة العربية إنسانًا يتحدث عن نفسه، وينعي حظه، ويستنجد بقومه، ويرجوهم تارة، ويبثهم شكواه أخرى. فقد رجعت اللغة تبحث عن أسباب ضعفها، فاتهمت عقلها، ونادت قومها، واحتسبت أجرها عند الله، وقد ولدت عرائس، وطلبت لهم أكفاء فلم تجد، فقامت بوأدهم[1] كما أنها ترى كل يوم بالجرائد مزلقًا، وتسمع ضجة الكتاب، وتعاتب قومها، وتبسط رجاءها بعد بسط شكواها. إلى غير ذلك مما يشعرك أنك أمام إنسان عاقل يسمع ويرى، ويفكر، ويعاتب، فقد استطاع حافظ -بقدرته البيانية-

(١) انظر: من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية للأستاذ الدكتور/ علي علي صبح ص ١٠٩.

أن يجسد الأمر المعنوي في صورة حسية، وأن يجعل لها حياة، ويلبسها ثوب الأحياء، ويضفي عليها صفاتهم.

وقد حلق الشاعر بخياله مع القدماء في خيالهم، واستمد صوره الجزئية من الخيال العربي القديم والأصيل ولاعتماده على عنصر التشخيص كثرت الاستعارات وتتابعت، فنجدها في قوله: رجعت لنفسي، اتهمت حصاتي، ناديت قومي، احتسبت حياتي، رموني بعقم، عقمت، لم أجزع، ولدت، لم أجد لعرائسي، وأدت بناتي، في أحشائه الدر، ينادي بوأدي، ربيع حياتي، تلين قناتي، حفظن ودادي، أرى كل يوم بالجرائد مزلقًا، أسمع للكتاب، بسطت رجائي ... وقد أسهمت هذه الاستعارات في إبراز عنصر التشخيص وأضفت عليه حركة وحيوية.

كما استعان الشاعر بالتشبيه، فشبه اللغة العربية في ثرائها بالبحر الزاخر بالدر والياقوت، وشبه ما خالطها من لغات العجم بلعاب الأفاعي وقد سرى في مسيل فرات، وشبه حال اللغة بعد أن شابها ما شابها من لغات العجم ولوثة الإفرنج بثوب مهلهل ممزق ضم سبعين رقعة مختلفة الأشكال والألوان.

وكنى بقوله: "رموني بعقم" عن ضيق اللغة وجمودها.

وهذه القصيدة –في جملتها– تعد واحدة من درر حافظ وغرر قصائده، يقول د/ شوقي ضيف: ونزعة حافظ الوطنية يقترن بها في شعره نزعتان: عربية وإسلامية، وتبدو الأولى في كثير من قصائده، وخاصة قصيدته التي تكلم فيها

بلسان اللغة العربية، وقد نشرها في أول القرن[1] حين كانت تهب عاصفة العامية ضد العربية، وهي من غرر قصائده.

وأما النزعة الإسلامية فتبدو في قصيدته العمرية التي قصرها على عمر بن الخطاب وأعماله، كما تبدو في شعر كثير له نظمه في الخلافة العثمانية؛ إذ كان المسلمون يتجهون إليها في أول القرن كما يتجهون إلى مكة، فهذه قلب الإسلام الخافق، وتلك سنده الذي يذود عنه بالسلاح[2]

(١) نشرت هذه القصيدة سنة ١٩٠٣م .

(٢) الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور/ شوقي ضيف ص ١٠٩ ، ط / دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م، الطبعة السابعة.

غربة وحنين إلى الوطن

لأمير الشعراء أحمد شوقي

الشاعر[1]:

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، ولد بالقاهرة في السادس عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٧٠م، غير أنه عندما تقدم للالتحاق بمدرسة الحقوق رفض لصغر سنّه فأمر الخديو بكتابة شهادة ميلاد له بتاريخ سنة ١٨٦٨م؛ ومن هنا وقع الاختلاف في تاريخ مولده.

ولد شوقي لأب وأم تنحدر إليهما عناصر مختلفة، فقد كان أبوه يجري فيه الدم العربي والكردي والشركسي، وكانت أمه يجري فيها الدم التركي واليوناني. وكان أول من نزل بمصر من أجداده هو جده لأبيه أحمد شوقي، نزل بها في عهد محمد علي باشا، فضمه إلى حاشيته، وتوالت الأيام وهو يترقى في المناصب حتى أصبح أمينا للجمارك المصرية في عهد سعيد باشا، وتوفي وهو في هذه الوظيفة عن ثروة واسعة عاش فى ظلها ولده علي وحفيده أحمد شوقي.

---

(١) راجع في ترجمة شوقي وأخباره: شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور/ شوقي ضيف، شوقي شاعر العربية الأكبر لإسعاف النشاشيبي، حافظ وشوقي للدكتور/ طه حسين ص ١٦٣ وما بعدها، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد ص١٤٩، اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة لمحمود تيمور ص ٨٣، والأدب المعاصر في مصر للدكتور/ شوقي ضيف ص ١١٠ .

أما جد شوقي لأمه فهو أحمد حليم النجدة -نسبة إلى قرية بالأناضول تسمى نجدة- وقد نزل مصر في عهد إبراهيم باشا، وأعجب به إبراهيم فقربه منه، وزوجه معتوقة يونانية تسمى ((تمراز)) كانت قد أسرت في حرب ((المورة)) وهي بنت عشر سنين، ونشأت في قصر الخديو وبين وصيفاته. وظل أحمد حليم يتقلد المراتب السامية في الدولة حتى صار وكيلا لخاصة إسماعيل، وتوفى وهو في هذه الوظيفة، فنقل إسماعيل راتبه إلى أرملته.

إذن فقد نشأ شوقي في أسرة أرستقراطية مترفة، والتحق بالكتّاب من سنته الرابعة، ثم انتقل إلى المدارس الابتدائية فالثانوية، وعندما أتم تعليمه الثانوي ألحقه والده بمدرسة الحقوق ليدرس بها القانون، وأنشئ بها قسم للترجمة فالتحق به شوقي، وتخرج فيه سنة ١٨٨٧م، فعينه الخديو في القصر، ثم أرسله إلى فرنسا ليكمل دراسة الحقوق بها.

وعاد شوقي من دراسته بعد رحلة استمرت أربع سنوات، فعين رئيسًا للقسم الإفرنجي بالقصر، وسرعان ما أصبح شاعر الخديو عباس، وأصبحت له حظوة ومكانة كبيرة عنده، فجعل له تدبير كثير من الأمور وتصريفها، فصار بذلك مقصد طلاب الرتب والجاه والسلطان.

وقد دار شوقي في هذه الفترة في فلك إسماعيل، وعلى الرغم من أنه كان مشدودًا بحكم وظيفته إلى القصر وصاحبه فإنه قد حاول أن يفرغ لنفسه وفنه، فنظم شعرًا كثيرًا على لسان الحيوان، ومد شعره إلى ينابيع الإسلام؛ فاستقى منه قصائد رائعة في مديح الرسول ﷺ، كما كان يستقى -أحيانًا- من

ينابيع العروبة، بما ينبئ أنه كان يريد الانطلاق من قيود القصر وصاحبه، والتحليق في آفاق أوسع وأرحب.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى أقصي الخديو عباس عن حكم مصر لتأييده تركيا ضد الإنجليز، ونفي شاعره أحمد شوقي إلى إسبانيا، فقضى في منفاه أربع سنوات، ثم عاد إلى مصر، فاتصل بالشعب وصار لسان العروبة والإسلام.

وفي سنة ١٩٢٧م بويع شوقي أميرًا للشعراء في مهرجان شعري عظيم، حضره كوكبة من شعراء مصر والبلاد العربية منهم: حافظ إبراهيم، خليل مطران، شبلي ملاط، محمد كرد علي، إسعاف النشاشيبي، وفي هذه المناسبة يقول حافظ:

أَميـرَ القَوافي قَد أَتَيتُ مُبايعًا
وَهَذي وُفودُ الشَرقِ قَد بايَعَت مَعي
فَغَنِّ رُبوعَ النيلِ وَاِعطِف بِنَظرَةٍ
عَلى ساكِني النَهرَينِ وَاِصدَح وَأَبدِعِ

بين حافظ وشوقي:

يمكن أن نقول: إن حياة شوقي كانت على النقيض من حياة حافظ، فإذا كان حافظ قد ذاق ألم البؤس ومرارة الحرمان، فإن أحمد شوقي قد تقلَّب منذ نعومة أظافره في شتى ضروب النعيم والجاه والسلطان.

وقد اختلف الناس في الشاعرين أيهما أشعر من صاحبه؟ ففريق يفضل حافظًا، ويؤثره عمن سواه، وفريق يفضل ((شوقيًّا)) كمعجزة شعرية مع حبه لحافظ وإعجابه به، وقليل من الناس من يقف بينهما موقفًا وسطًا، وكانت هذه حال الناس في عهدهما، لا في مصر وحدها، بل في مشارق الأرض ومغاربها.(١)

وقد تعرض الدكتور/ طه حسين لهذا الأمر في كتابه ((حافظ وشوقي)) فقال: "وصل شوقي في شيخوخته إلى ما وصل إليه حافظ في حياته، لأن ((شوقيًّا)) سكت حينما كان حافظ ينطق، ونطق حينما اضطر حافظ إلى الصمت، يا لسوء الحظ، ليت ((حافظًا)) لم يوظف قط، وليت ((شوقيًّا)) لم يكن شاعر الأمير قط. ولكن هل تنفع شيئًا ليت؟ لقد أسكت حافظ ثُلث عمره، وسجن شوقي ربع قرن، وخسرت مصر والأدب بسعادة هذين الشاعرين العظيمين شيئًا كثيرًا.

وكلا الشاعرين قد رفع لمصر مجدًا بعيدًا في السماء، وكلا الشاعرين قد غذى قلب الشرق العربي نصف قرن، أو ما يقرب من نصف قرن بأحسن الغذاء، وكلا الشاعرين قد أحيا الشعر العربي، وردَّ إليه نشاطه ونضرته ورواءه، وكلا الشاعرين قد مهد أحسن تمهيد للنهضة الشعرية المقبلة التي لابد من أن تقبل، هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك، هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي بدأت في نجد وانتهت في القاهرة، وعاشت خمسة عشر قرنًا أو أكثر، والتي ستنمو وتتطور وتستقبل لونًا

(١) انظر مقدمة ديوان حافظ لمحمد إسماعيل كاني: ص٤٩.

جديدًا من ألوان الفن، وضربًا جديدًا من ضروب المُثل العليا في الشعر، هما أشعر العرب في عصرهما. ولكن أيهما أشعر من صاحبه؟

أفتري أن ليس من هذا الحكم بد؟ أفتري أن تفضيل أحد الرجلين على صاحبه يغني أو يفيد؟ نعم ليس من هذا الحكم بد؛ لأنه تقرير الحق الواقع، وفي هذا الحكم نفع عميم؛ لأنه وضع للأشياء في نصابها، ولأنه يبين للمبتدئين في الشعر من الشبان أين يكون المثل الأعلى؟

أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشاعرين خير من صاحبه على الإطلاق، ولكن شوقيًّا لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم، وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان.

لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة، وأغنى منه مادة، وأنفذ منه بصيرة، وأسبق منه إلى المعاني، وأبرع منه في تقليد الشعراء المتقدمين، لأن حافظًا كان يقلد في الألفاظ والصور، وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضًا، ولشوقي فنون لم يحسنها حافظ وما كان يستطيع أن يحسنها.

شوقي شاعر الغناء غير مُدافع، وشوقي شاعر الوصف غير مُدافع، وشوقي مُنشئ الشعر التمثيلي في اللغة العربية.

يلتقي الرجلان في كثير، ويفترقان في كثير، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظًا في إقامة مجدنا الحديث."[1]

وكانت وفاة شوقي حوالي الساعة الثانية من ليلة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢م.[2]

(١) حافظ وشوقي لطه حسين ص ١٩٠- ١٩٢ بتصرف.

(٢) انظر: شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور/ شوقي ضيف ص ٣٥ .

النـــــــص

اِختِلافُ النَهارِ وَاللَيــلِ يُنسي
أُذكُرا لِيَ الصِــبا وَأَيّامَ أُنسي[1]

وَصِفا لي مُلاوَةً مِـــن شَبــابٍ
صُوِّرَت مِن تَصَـــوُّراتٍ وَمَسِّ[2]

عَصَفَت كَالصِبا اللَعــوبِ وَمَرَّت
سِنَةً حُـــلـــوَةً وَلَذَّةُ خَـلسِ[3]

وَسَلا مِصرَ هَل سَلا القَلبُ عَنها
أَو أَسا جُرحَهُ الزَمانَ المُؤَسّي[4]

كُلَّما مَـــــــرَّتِ اللَيالي عَلَيهِ
رَقَّ، وَالعَهدُ في اللَيالي تُقَسّي[5]

---

(١) اختلاف النهار والليل: تعاقبهما، ومجيء أحدهما إثر الآخر، الصبا (بكسر الصاد): عهد الصغروالحداثة. أنسي: سعادتي.

(٢) الملاوة (مثلثة الميم): المدة من الدهر، يقال: أقام عنده ملوة وملاوة من الدهر إذا أقام عنده مدة منه، تصورات: تخيلات، المس: الجنون، والمراد: نشاط الشباب وادفاعه.

(٣) الصبا (بفتح الصاد): ريح تهب من مشرق الشمس إذا استوى النهار والليل، ومقابلتها: الدبور. اللعوب: الرشيقة الحركة. السنة: النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور، الخلس: الأخذ في نهزة ومخاتلة.

(٤) سلا (الأولى): فعل أمر بمعنى اسألا، و(الثانية): فعل ماضي من السلو، يقال: سلاه وسلا عنه إذا نسيه وطابت نفسه بعد فراقه. أسا.جرحه: عالجه. المؤسي: المعالج.

(٥) رق: لان وضعف، والمراد زاد حنينه وشوقه إلى وطنه.

مُستَطـــارٌ إِذا البَواخِـــرُ رَنَّت
أَوَّلَ اللَيلِ أَو عَـــوَت بَعدَ جَـرسِ[١]

راهِبٌ في الضُلوعِ، لِلسُّفنِ فَطْنُ
كُلَّمـــــــا ثُـــرنَ شاعَهُنَّ بِنَقسِ[٢]

يا بنَةَ اليَمِّ مـــا أَبـــوكِ بَخيلٌ
ما لَهُ مـولَعًا بِمَـنعٍ وَحَـــــــبسِ[٣]

أَحَـــرامٌ عَـــــلى بَلابِلِهِ الدَو
حُ حَـلالٌ لِلطَيـرِ مِن كُلِّ جِنسِ[٤]

كُلُّ دارٍ أَحَـــــقُّ بِالأَهلِ إِلا
في خَبيثٍ مِنَ المَذاهِبِ رِجسِ[٥]

نَفسي مِرجَلٌ وَقَلبي شِـــراعٌ
بِهِما في الدُموعِ سيري وَأَرسي[٦]

---

(١) مستطار: مذعور خائف، وهي صفة للقلب، كأنه سيطير من صدره. رنت: صاحت أو صوتت، وآذنت بالرحيل. عوت: العواء صوت الذئب، وشبه صوت السفينة به لاشتراكهما في إثارة الذعر والفزع. الجرس: الصوت، وقيل: الصوت الخفي.

(٢) للسفن فطن: مدرك لحركاتها. ثرن: تحركن. شاعهن : شايعهن وودعهن. النقس: صوت الناقوس، والمراد شدة الخفقان.

(٣) اليم: البحر، وكنى بابنة اليم عن السفينة. مولعًا: مغرمًا.

(٤) الدوح: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة.

(٥) خبيث المذاهب: فاسدها، ويقصد بها مذهب المستعمرين. الرجز: الخبيث، والدنس، والقبيح.

(٦) المرجل: القدر من النحاس أو الطين المطبوخ، وفي علم الميكانيكا: الجهاز الذي تتم به عملية توليد البخار من الماء أو من غيره. الشراع: شراع السفينة، وهو قلعها، وجمعه أشرعة وشرع.

وَاِجعَلي وَجهَـكِ الفَنارَ وَمَجرا
كِ يَدَ الثَغـرِ بَينَ رَملٍ وَمَكسِ[1]

وَطَني لَـــو شُغِلتُ بِالخُلدِ عَنهُ
نازَعَتنـــي إِلَيهِ في الخُلدِ نَفسي

وَهَفـــــا بِالفُؤادِ في سَلسَبيلٍ
ظَمَأٌ لِلسَـوادِ مِـن عَينِ شَمسِ[2]

شَهِدَ اللَهُ لَم يَغِـب عَن جُفوني
شَخصـُهُ ساعَةً وَلَم يَخلُ حِسّي

(١) الفنار: شبه برج مرتفع لإرشاد السفن في البحار والمحيطات إلى طريق السير وتجنب مواطن الخطر، (وهو المنار مُحَرَّفا)، والشاعر يقصد بالفنار –هنا– منار الإسكندرية. الرمل: منطقة على شاطئ الإسكندرية بالشرق، والمكس: منطقة أخرى على الشاطئ جهة الغرب، وبينهما الميناء الذي يستقبل السفن.

(٢) السلسبيل: الماء العذب. الظمأ: العطش، والمراد به –هنا– الشوق. السواد: القرى المحيطة بالمدينة، والمراد هنا ضواحي عين شمس وهي منطقة معروفة بالقاهرة جهة الشرق.

جو النص:

كان شوقي -كما ذكرنا- شاعر القصر أو شاعر الخديو، فلما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، وكان الخديو عباس غائبًا عن مصر في تركيا - أعلنت إنجلترا حمايتها على مصر، وعزلت الخديو عباس لمساندته تركيا ضد الإنجليز وحلفائهم، وأقامت مكانه السلطان حسين كامل، وأخذت تحول بين حاشية عباس وبين القصر، وخاصة ذوي الزلفة والحظوة الأولى منهم.

وبما أن ((شوقيًّا)) كان شاعر الخديو وأحد المقربين إليه فقد أوجس الإنجليز خيفة من تأثير شعره في نفوس المصريين،فأمروا بنفيه من البلاد، فاختار الأندلس مقامًا له.

ولم يعد شوقي في منفاه يحيى تلك الحياة الرتيبة التي كانت تبدأ من كرمة ابن هانئ إلى القصر، ثم يعود أدراجها من القصر إلى كرمة ابن هانئ، فهذه الدورة من حياته قد دخلت في عالم الظلال إلى غير رجعة، وخلفتها دورة جديدة، انتقل فيها الشاعر إلى عالم النور حيث لا ترهقه قيود القصر وأغلاله ولا أفاعيه وسمومه.

ومع أن ربة الشعر كانت فرحة هنيئة بهذه الدورة الجديدة فإن ((شوقيًّا)) لم يستقبلها بالفرح، بل استقبلها بالحزن والألم لفراق الوطن، وقلة المال، وتعذره أحيانًا بسبب الحرب، ولم يكن شوقي قبل ذلك يعرف الحزن، فقد كانت حياته تجري على وتيرة واحدة من اللهو والمرح، فلما حيل بينه وبين عشه أحس بغير قليل من الألم، بل أخذ الألم يصهر نفسه، وكم كان شعرنا

المصري الحديث محتاجًا إلى أن يصهر الألم نفس شوقي، حتى تصبح غنية، وحتى يقترب شوقي من جمهور وطنه، وما يكتظ به صدره من هموم وآلام.

فليحزن شوقي، ليحزن من غربته، وليحزن لمضايقة الإنجليز له فيما يرسل إليه من أمواله، وليحزن علي عيشه في كرمة ابن هانئ، وليحزن على وظيفته في القصر، وليحزن على ما أصاب أميره عباس، ليحزن لهذا النفي والتشريد، ففي كل ذلك أحلام جديدة ستتحقق لشعرنا المصري الحديث، فقدت تمت لشوقى آنذاك نفسه الشاعرة، وتم له صوته عندما أحس الحياة من طرفيها: اللذة والألم، والنعيم والحرمان.

وظل شوقي حبيس «فلفدريرا»[1] حتى أعلنت الهدنة سنة ١٩١٨م، فأصبح من حقه أن يتجول في إسبانيا كما يشاء فتنقل بين مدنها الكبيرة، ورأى مجد العرب الداثر في قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة؛ فأخذ يبكيهم ويبكي نفسه[2]. وقد استهلها بهذا المطلع الذي يعبر فيه عن أساه وحنينه إلى وطنه، وهو ما اخترناه للدراسة والتحليل.

---

(١) فلفدريرا : ضاحية جميلة من ضواحي برشلونة، كان شوقي قد أقام بها في منفاه.

(٢) انظر: شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور/ شوقي ضيف ص ٢٦ وما بعدها.

تحليل الأبيات:

من (١-٧)

استهل شوقي قصيدته بحكمة مفادها أن مرور الأيام والسنين المتمثل في تعاقب الليل والنهار ينسي الإنسان ما يتقادم عهده، غير أنه لا يريد أن ينسى، لذا فهو يطلب من صاحبيه -جريًا على عادة القدماء- أن يعيدا عليه ذكريات الصبا، وأيام السعادة والأنس التي عاشها في ربوع مصر، وأن يصفا له أيام الشباب المملوءة بالطموح والنشاط، والمرح والانطلاق تلك المرحلة التي مضت وكأنها النسيم اللطيف الرقيق، أو كأنها إغفاءة مرت سريعة رأى فيها صاحبها من الأحلام ما رأى، ولكنه سرعان ما أفاق إلى واقعه المر أو كأنها لذة مختلسة خاطفة لم يطل هناء صاحبها بها.

وفي أسلوب استفهام غرضه النفي يطلب شوقي إلى صاحبيه أن يسألا مصر: هل سلا القلب عنها أو نسيها، وهل استطاع تقادم الزمن واختلاف الليل والنهار أن ينسي الشاعر وطنه؟

إن بعد الشقة وتطاول الزمن لا يزيد الشاعر إلا تعلقًا بوطنه، وهيامًا به ولا يزيد قلبه إلا رقة وضعفًا، فقلبه يكاد يطير من بين جنبيه عندما يسمع صوت السفن إيذانًا بتحركها وصولا أو إقلاعًا، فقد تفرغ قلبه لمراقبة هذه السفن، يستجيب لحركتها، ولا يتخلى عن متابعتها، حتى صار حاذقًا خبيرًا بأصواتها وتحركاتها، يرقب ذلك اليوم الذي تحمله فيه إلى وطنه، فكلما تحركت سفينة متجهة إلى وطنه شايعها بقلب يخفق ويضطرب كأنه ناقوس يدق في محراب صدره، مثلما يدق الجرس عند قيام الباخرة إيذانًا بإقلاعها.

من (٨– ١٢)

وفي هذه الأبيات يخاطب السفينة، ويستدر عطفها وكرمها، استحياء من كرم البحر، ويتعجب من بخل البحر عليه بمنعه من السفر، وعدم حمله إلى بلاده التي يهفو قلبه إليها، ثم ينتقل من الحديث عن قسوة البحر عليه، وحبسه إيَّاه، إلى الحديث عن قسوة الاستعمار الذي حرمه من وطنه، وأباحه للغرباء المستعمرين من كل لون وجنس، فيستفهم –مستنكرًا– كيف تحرَّم الأوطان على أبنائها، وتباح لغيرهم ينهبون خيراتها، وينتهكون حرماتها، كما يباح الدوح والشجر للطير من كل نوع، ويحرم على بلابله التي تعيش فيه.

وفي حكمة سديدة يقرر شوقي أن كل أهل أحق بدارهم، وكل قوم أحق بوطنهم إلا في الفاسد الخبيث من مذاهب المستعمرين المستبدين، الذين يمتصون دماء الشعوب ويحرمونها من خيرات بلادها.

ثم يعود فيستعطف السفينة، ويتوسل إليها أن تنقله إلى بلده، ويتقدم لها بكل ما يمكن أن تتطلبه الرحلة فيجعل من أنفاسه الحارة وقودًا و جهازًا محركًا للسفينة، ومن قلبه الخافق بالشوق شراعًا لها، ومن دموعه الغزيرة بحرًا وماءً تسبح فيه السفينة حتى تصل به إلى وطنه، وإنه ليرجوها أن تتجه به إلى ميناء الإسكندرية حيث المنار المشهور، وأن تنزل به على شاطئ الثغر بين حي الرمل شرقًا وحي المكس غربًا، حيث كان الشاعر يقضي شهور الصيف في هذا المكان متنزهًا، متمتعًا بجوه الرائع ومناظره الخلابة.

من (١٢ –١٥)

في هذه الأبيات يذكر الشاعر أن حبه لوطنه فوق أي حب، وأن تقلبه في المدن الإسبانية –مهما كان جمالها وروعتها– لا يمكن أن يشغله عن وطنه أو يُنسيه إيَّاه، فلو أنه حُرم من وطنه أو أبعد عنه، وعاش في جنة الخلد – لاشتاقت نفسه إلى وطنه، ولنازعته في جنته، ولا شك أن في ذلك مبالغة، وإن كان الشاعر قد خفف من حدتها باستخدام ((لو)).

وإنه ليشعر بظمأ وحنين إلى مصر، وإلى أن يرى أحياءها وضواحيها وخاصه حي ((عين شمس)) الذي تربط الشاعر به ذكريات جميلة.

ويشهد الله أن صورة وطنه لم تفارقه، ولم تغب عن عينه لحظة، كما أن مشاعره المتدفقة لم تهدأ من الحنين إلى وطنه، فصورة الوطن في قلبه وأمام عينيه يراها ببصره وبصيرته.

التصوير البياني:

اعتمد شوقي في هذا النص على التصوير البياني، من التشبيه والاستعارة والكناية، فنجد التشبيه في قوله: عاصفة كالصبا، مرت سنة حلوة ولذة خلس، نفسي مرجل، قلبي شراع ...

فقد شبه مرحله الشباب في سرعة انقضائها بالريح الرقيقة العابرة، وشبه قِصرها وجمالها بالسِنة الحلوة واللذة الخاطفة. وشبه أنفاسه الحارة بوقود السفينة، وقلبه الخافق بشراعها، مما يوحي بشدة شوقه إلى وطنه واستعداده للتضحية بأعز ما يملك في سبيل الوصول إليه.

أما التصوير الاستعاري فنجده في قوله: عصفت، سلا مصر، سلا القلب، أسا جرحه الزمان، مرت الليالي، الليالي تقسي، البواخر عوت، شاعهن، سيري في الدموع وأرسى، اجعلي وجهك، لم يغب شخصه ...

وقد أدت هذه الاستعارات دورها في خدمة المعنى بالتشخيص، أو التجسيم، أو التوضيح، فلو نظرنا في قوله :

مُستَطارٌ إِذا البَـواخِـــــرُ رَنّـَت　　　أَوَّلَ اللَيلِ أَو عَوَت بَعدَ جَرسِ

راهِبٌ في الضُلوعِ، لِلسُفنِ فَطْنُ　　　كُلَّمـــا ثُـرنَ شـــاعَهُنَّ بِنَقسِ

نجد أن كلمة ((مستطار)) تصور القلب طائرًا مذعورًا، وتوحي بما يصيب هذا القلب من الفزع والاضطراب عندما يسمع صوت البواخر إيذانًا بوصولها أو إقلاعها، والاستعارة المكنية في كلمة ((عوت)) تصور البواخر ذئابًا تعوي، مما يوحي بشدة الرعب والفزع من صفير هذه البواخر التي ترحل دون أن تحمله معها إلى مصر. أما قوله: ((راهب)) فيجعل من قلب الشاعر إنسانًا راهبًا في محرابه، مما يوحي بعزلته وانقطاعه عن الناس، ويأتي قوله: ((للسفن فطن)) فيجعل من قلبه إنسانًا ذكيًا مدركًا لحركة السفن، فإذا تحركت شيَّعها وودعها، وكأنه إنسان يودع شيئًا عزيزًا عليه في حسرة وأسى وخفقان واضطراب يشبه دقات الناقوس.

والخيال في البيتين ممتد مترابط، فقلبه مستطار، راهب في الضلوع، مدرك لحركة السفن، مودع لها بخفقان يشبه دقات الناقوس، مما أسهم في رسم صورة واضحة لحال الشاعر، آساه في غربته و شدة شوقه إلى وطنه.

وأما الكناية فنجدها في قوله: ((يا بنه اليم)) كناية عن السفينة، وفي قوله: ((أبوك))، كناية عن البحر.

والصور عند شوقي بعضها مستمد من التراث، كالتشبيه بالصبا، وعواء الذئب، بلابل الدوح. وبعضها مبتكر كقوله: نفسي مرجل، وقلبي شراع، في الدموع، سيري وأرسي.

بين شوقي والبحتري[1]:

يقول شوقي في كلمة قدم بها لهذه القصيدة: وكان البحتري -رحمه الله- رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال. فإنه أبلغ من حلى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العِبر، ومَن قام في مأتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر، ... وتكفل لكسرى بإيوانه حتى زال عن الأرض ديوانه، وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه وهو تحت كسرى في رصه ورصفه وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار، فسينية البحتري قد بقى بها كسرى في ديوانه أضعاف ما بقى شخصه في إيوانه، وهذه السينية هى التي يقول في مطلعها:

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدَنِّسُ نَفسي وَتَرَفَّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ[2]

فكنت كلما وقفت بحجر، أو أطفت بأثر، تمثلت بأبياتها واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وَعَظَ البُحتُرِيَّ إيوانُ كِسرى وَشَفَتني القُصورُ مِن عَبدِ شَمسِ

---

(١) البحتري: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، لقب بالبحتري نسبة إلى عشيرته بحتر، ولد سنة ٢٠٤هـ، وقيل سنة ٢٠٦هـ بمنبج إلى الشمال الشرقي من حلب، ونشأ بها عربيًّا فصيحًا، وكان شاعرًا مطبوعًا، حلو الألفاظ، سهل التراكيب، وكان متكسبًا، كثير المديح للخلفاء ووزرائهم، وولاتهم وقوادهم، وكانت وفاته سنة ٢٨٦هـ .

(٢) جدا: عطاء. جبس: لئيم .

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الريضة[1]، وأنا أعرضها على القراء راجيًا أن يلاحظوها بعين الرضا، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء، وهذه هي :

اِختِلافُ النَهارِ وَاللَيلِ يُنسي

اُذكُرا لِيَ الصِبا وَأَيّامَ أُنسي[2]

ويرى بعض الكتاب أن المعارضة[3] نوع من التقليد لا تظهر فيه شخصية الشاعر وتجاربه الذاتية، غير أن هذا لا ينطبق على شوقي، لأنه لا يفني شخصيته في المحاكاة، إنما يتخذها وسيلة للمنافسة والإجادة، والتفوق أحيانًا.

لقد تأثر شوقي بقصيدة البحتري، فنقل عنها،واحتذى على مثل أبياتها، وقد أعلن هو عن ذلك في تقديمه لها، لكنه انفرد مع ذلك بشخصيته، وحنينه فيها إلى وطنه، وأيضًا في استرسالاته فيها وحديثه عن آثار بلاده، إذ يقول في الأهرام وأبي الهول:

وَكَأَنَّ الأَهرامَ ميزانُ فِرعَو

نَ بِيَـومٍ عَلى الجَبـــابِرِ نَحسِ

---

(١) الريضة : الصعبة، يقال قصيدة ريضة أي: لم تحكم، وقصيدة ريضة القوافي: أي صعبة لم تقتضب قوافيها الشعراء .

(٢) الشوقيات : ج ٢ ، ص٤٤، ٤٥ .

(٣) المعارضة : هي اتفاق الشاعرين في الوزن والقافية والغرض الشعري، وشوقي يعارض بهذه السينية سينية البحتري في إيوان كسرى.

أَو قَناطيـــــرُهُ تألَّقَ فيهـــا
أَلفُ جابٍ وَأَلفُ صـــاحِبِ مَكسِ[1]

رَوعَةٌ في الضُحى مَلاعِبُ جِنٍّ
حينَ يَغشى الدُجى حِماها وَيُغسي[2]

وَرَهيـــنُ الرِمالِ أَفطَـسُ إِلا
أَنَّهُ صُنـــعُ جِنّـــةٍ غَـيرُ فُطسِ[3]

تَتَجـــلّى حَقيقَـةُ الناسِ فيهِ
سَبُعُ الخَـــلقِ في أَساريرِ إِنسي

وقد تحولت قصيدة شوقي إلى ملحمة يتحدث فيها عن الدول تدول، والسعود تتحول نحوسًا، ثم يفيض في الحديث عن الأندلس العربية ، وقرطبة، ودرة تاجها عبد الرحمن الناصر، وجيوشه، وخطيبه: منذر بن سعيد، وما أشاد العرب هناك من علم وعمائر ، ثم خرج إلى وصف قصر الحمراء بغرناطة وصفًا هو آية في الروعة والجمال، فقد استطاع أن يجعل صورة القصر ماثلة أمام أبصارنا، وأن يجسمها حسيًّا ومعنويًّا في صورتها وفي تاريخها تجسيمًا قويًا وبارزًا، ولم يلبث خياله –على عادته– أن يتألق، فإذا هو يفاجئنا بتصويره للقصر كأنه راية الجيش العربي المهزوم، خلفها بالأمس القريب بين أسراه وقتلاه. فيقول:

(١) الجابى: جامع الخراج، المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية، والمراد بها الضرائب.

(٢) يغسي: يظلم.

(٣) رهين الرمال: المراد به أبو الهول.

آخَرَ العَهدِ بِالجَزيرَةِ كانَت

بَعدَ عَــركٍ مِنَ الزَمانِ وَضَرسِ

فَتَراها تَقولُ رايَةُ جَيــشٍ

بادَ بِالأَمسِ بَينَ أَسرٍ وَحَسِّ[1]

وأخيرًا يمكن القول: إن "معارضات شوقي لم تجن عليه ولم ترمه بعيدًا عن إحراز قصب السبق، بل على العكس كان يذهب صعدًا فيها[2]، وقلما أسف[3] أو أكدى[4]، وهي في الواقع ليست أكثر من نقط ارتكاز تدلنا على أن الشاعر عني عناية شديدة بدرس الشعر وعيونه التي سبقته، وهو درس انتهى به إلى فهم أسرار الصنعة ومعرفة أصولها معرفة جعلت النصر حليفه في أكثر مبارياته إن لم يكن فيها جميعًا."[5]

مدرسة شوقي الشعرية وأثرها في النص:

ينتمي شوقي إلى مدرسة المحافظين (مدرسة الإحياء والبعث) وعلى وجه التحديد إلى الاتجاه الثاني لهذه المدرسة، وهو الكلاسيكية الجديدة، وشعارها -كما مر- التجديد في إطار المحافظة على القديم من التمسك

(١) باد : فني وهلك، الحس: القتل والاستئصال.

(٢) يذهب صعدا: يرتفع.

(٣) أسف: طلب الدنيء من الأمور .

(٤) أكدى: أجدب.

(٥) انظر شوقي شاعر العصر الحديث لشوقي ضيف ص ٦٢، وراجع ص٥٧: ٦١.

بوجود الوزن والقافية، وجزالة الألفاظ، والتأثر بالخيال القديم مع التجديد في بعض الأغراض.

فنجد من آثار المحافظة التزام وحدة الوزن والقافية، وتعدد الأفكار في القصيدة، فقد تحدث فيها عن حنينه إلى وطنه في الجزء الذي درسناه، ثم تحدث عن آثار بلاده الأهرام وأبي الهول، ثم أفاض في الحديث عن الأندلس وأيام العرب بها، ثم ما صار إليه حالهم، معتمدًا في ذلك كله على وحدة الشعور والجو النفسي.

ونلمس التأثر بالقدماء في جزالة الألفاظ ورصانة الأسلوب، ونراه في مطلع قصيدته يجرى النسق العربي القديم في قوله: اذكرا لي الصبا، وصفا لي ملاوة من شباب، وسلا مصر، فقد كان من عادتهم أن يخاطبوا نساءهم في ابتداءات قصائدهم إذا حضروا، ويخاطبوا خليليهم إذا سافروا.[1] على حد قول امرئ القيس:

خَليلَيَّ مُرّا بي عَلى أُمِّ جُندَبِ ... لنقَضِّ حاجاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

وقوله:

يَا صَاحِبِي قفا النواعج سَاعَة ... نبكي الديار كَمَا بَكَى ابْن حمام[2]

---

(١) انظر شرح ديوان أبي محجن الثقفي لأبي هلال العسكري ص ٢٥ .

(٢) النواعج من الإبل: البيض الكريمة.

أما التجديد فيظهر في الجانب الوطني من القصيدة، كما يظهر في حديث الشاعر عن آثار بلاده، وفي بعض الصور التي ابتكرها الشاعر أو حاول أن يضفي عليها مسحة جديدة.

من وحي القلم
للرافعي (١٨٨٠– ١٩٣٧م)

الكاتب[(١)]:

هو أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي، ولد في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية في أول يناير سنة ١٨٨٠م.

وأصله من مدينة طرابلس اللبنانية، وكان أول من وفد إلى مصر من أسرة الرافعي هو الشيخ محمد الطاهر الرافعي، وقد نزل بها سنة ١٨٢٧م بأمر من السلطان العثماني، ليتولى قضاء المذهب الحنفي، وكانت مصر آنذاك ولاية عثمانية. ثم جاء إلى مصر بعد الشيخ محمد الطاهر الرافعي عدد كبير من إخوته وأبناء عمه، وبلغ عدد أفراد أسرة الرافعي في مصر حين وفاة مصطفى صادق الرافعي سنة ١٩٣٧م ما يزيد على ستمائة .

وكان العمل الرئيس لرجال أسرة الرافعي هو القضاء الشرعي حتى وصل الأمر إلى الحد الذي اجتمع فيه من آل الرافعي أربعون قاضيًا في مختلف المحاكم الشرعية المصرية في آن واحد، وقد تنبه ((اللورد كرومر)) إلى هذه

(١) راجع في ترجمة الرافعي وأخباره: حياة الرافعي لمحمد سعيد العريان، مصطفى صادق الرافعي كاتبًا عربيًا ومفكرًا إسلاميًا للدكتور/ مصطفى الشكعة، الرافعي ومي لعبد السلام هاشم حافظ، دراسات في الأدب المعاصر للأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجة ص١٥٨، وتاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر لأستاذنا الدكتور/ إبراهيم علي أبو الخشب ص ٢٩٩، والأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور/ شوقي ضيف ص٢٤٢، ومقدمة رجاء النقاش لكتاب((من وحي القلم)).للرافعي ص٧، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٥٥م (سلسلة روائع الأدب العربي– الأعمال الفكرية).

الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزير الخارجية الإنجليزي، لأنها كانت ظاهرة لافتة للنظر، وتحتاج إلى تفكير وتأمل.

وقد عين أحد أفراد هذه الأسرة –وهو الشيخ عبد القادر الرافعي– مفتيًا بعد وفاة الشيخ محمد عبده، غير أن القدر لم يمهله طويلا. وكان والد الرافعي –الشيخ عبد الرازق الرافعي– قد تولى منصب القضاء الشرعي في كثير من الأقاليم المصرية، وكان آخر عمل له هو رئاسة محكمة طنطا الشرعية.

فالجو الذي نشأ فيه الرافعي كان جوًا إسلاميًا عربيًا، وقد عني به أبوه، فحفظه القرآن الكريم، ولقنه تعاليم ديننا الحنيف، ثم ألحقه في سن الثانية عشرة بمدرسة دمنهور الابتدائية، حيث كان يتولى القضاء الشرعي بها، ثم نُقل إلى المنصورة فانتقل معه ولده مصطفى ، فأتم دراسته الابتدائية هناك وهو في السابعة عشرة من عمره، لكن بمجرد فراغه من هذه الدراسة أصابته حمى –يقال: إنها حمى التيفود– فأقعدته عدة شهور في سريره، ثم شفي منها، إلا أنها خلفت ورائها حبسة في صوته، ووقرًا في أذنبه، ولم يفد معه العلاج شيئًا بل قد أخذ سمعه يضعف حتى انتهى به إلى الصمم الخالص وهو فى الثلاثين من عمره، ولم يحصل من دراسته في تعليمه النظامي على شيء أكثر من الشهادة الابتدائية.

ومعنى ذلك أن الرافعي مثل العقاد في تعليمه، فكلاهما لم يحصل على شهادة أخرى غير شهادة الابتدائية.كذلك كان الرافعي مثل طه حسين صاحب عاهة دائمة، هي فقدان البصر عند طه حسين، وفقدان السمع عند الرافعي. ومع ذلك كان الرافعي مثل زميليه العقاد وطه حسين من أصحاب

الإرادة الحازمة القوية، فلم يعبأ بالعقبات التي وضعتها الحياة في طريقه، إنما اشتد عزمه، وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد، وعلم نفسه بنفسه، حتى استطاع أن يكتسب ثقافة رفيعة وضعته في الصف الأول من أدباء عصره ومفكريه[1].

وفي إبريل سنة ١٨٩٩م عين الرافعي كاتبًا بمحكمة طلخا الشرعية، ثم نقل منها إلى محكمة إيتاي البارود، ثم إلى محكمة طنطا الشرعية، فالأهلية، وظل في هذه الوظيفة إلى أن وافته منيته سنة ١٩٣٧م.

وعلى أن عمل الرافعي لم يشغله عن الدرس والمطالعة، فقد عكف على الكتب ينهل منها ويفيد معتمدًا على ذكائه وموهبته، وكان اهتمامه في البداية منصرفًا إلى الشعر وحده، فأصدر الجزء الأول من ديوانه[2] سنة ١٩٠٢م، وقد قرظه البارودي وأشاد به كما نوه به المنفلوطي، وفي العام التالي نشر الجزء الثاني من ديوانه، فقرظه البارودي أيضًا، ثم نشر الجزء الثالث سنة ١٩١٢م وقد ناب حافظ عن البارودي في تقريظه، وإلى جانب هذا الديوان نشر الرافعي ديوانًا آخر بعنوان ((النظرات)) سنة ١٩٠٨م، كما نشر قصائد متفرقة في مجلتي ((فتاة الشرق)) و((أبولو)).

وقد حاز شعر الرافعي إعجاب معاصريه ، إذ قرظه البارودي، وحافظ، والكاظمي، والمنفلوطي، كما رحب به زعماء الفكر والوطنية في مصر، فقال

---

(١) مقدمة رجاء النقاش لكتاب ((من وحي القلم)).للرافعي ص١١، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٥٥م .

(٢) نسب الرافعي هذا الديوان إلى نفسه، فسماه ((ديوان الرافعي)) .

عنه الشيخ محمد عبده –الأستاذ الروحي للرافعي– في رسالة بعث بها إليه: ((أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل)) .

وقال مصطفى كامل بعد أن قرأ شعر الرافعي: ((سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان)).

ثم اتجه الرافعي بعد ذلك إلى الكتابة النثرية، وكانت الجامعة المصرية قد رصدت جائزة لكتاب في ((أدبيات اللغة العربية)) فعكف على دراسة الأدب العربي، ولم يلبث أن نشر الجزء الأول من كتابه ((تاريخ آداب العرب)) سنة ١٩١١م، وفي العام التالي أصدر الجزء الثاني منه، وقصره على ((إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)) ثم طبعه بعد ذلك مستقلا بهذا الاسم، وقد نال هذا الجزء أو هذا الكتاب حظًا وافرًا من الإعجاب والتقدير، فقد أشاد به سعد زغلول إشادة بالغة وأحس الملك فؤاد بروعة هذا العمل وجلاله ؛ فأمر بطبعه على نفقته، ولا يقف الأمر بإعجاب الخاصة والعامة بالكتاب عند حد، حتى إن صحفيًّا كبيرًا –غير مسلم– هو الدكتور يعقوب صروف منشئ ((المقتطف)) يقول في تقريظه: ((يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن أن تكون عنده نسخة من هذا الكتاب)) .

ويتراءى الرافعي من هذا التاريخ مالكًا لأزمة اللغة والبيان، وكان أول ما جاشت به نفسه من النثر الفني كتابه ((حديث القمر)) الذي نشره سنة ١٩١٢م، وفي سنة ١٩١٧م صدر له كتاب ((المساكين)) يعارض به كتاب ((البؤساء)) لفكتور هوجو، الذي ترجمه حافظ إبراهيم إلى العربية، ثم توالت كتابات

الرافعي النثرية الرائعة، فكتب ((رسائل الأحزان))، ((السحاب الأحمر))، ((أوراق الورد)).

وفي سنة ١٩٢٦م نشر الرافعي كتابه الرائع ((تحت راية القرآن))، يرد به على كتاب ((الشعر الجاهلي)) لطه حسين، وقد صوب الرافعي سهامه إلى كل ما في هذا الكتاب من أخطاء.

ومنذ احتدمت المعركة بين القديم والجديد سنة ١٩٢٣م والرافعي يحمل لواء المحافظين، مدافعًا بقوة عن مُثُله العربية الإسلامية، وقد تعرض لدعاة التجديد في الشعر ممثلين في عباس العقاد، وأخذ يرميهم بأقذع صور الهجاء في كتابه ((على السفود))، وظل بقية حياته ثابتًا للمجددين من الشعراء والكتاب جميعًا، نقدًا مرًا، كما ظل مؤمنًا بالميراث العربي في لغته وآدبه، مؤمنًا بأن نهضة العرب لا تقوم إلا على أساس وطيد من الدين وعربيته الفصحى السليمة[١] .

ثم يأتي الميدان الأخير الذي تجلت فيه عبقرية الرافعي ووصل فيه إلى مكانته العالية في الأدب العربي، وهو مجال المقال، الذي أخلص له الرافعي في الجزء الأخير من حياته وأبدع فيه إبداعًا عجيبًا، وهذه المقالات هي التي جمعها الرافعي في كتابه ((وحي القلم)).[٢]

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور/ شوقي ضيف، ص ٢٤٤.

(٢) مقدمة رجاء النقاش لكتاب ((من وحي القلم)). ص١٧.

وهو في هذه المقالات يستلهم -دائمًا - مُثُله الإسلامية مستضيئًا بها في كل ما يكتب، كما يستلهم مُثُله العربية الرفيعة؛ بحيث يمكن أن نلقبه ((كاتب الإسلام والعروبة)).[1]

"لقد كان الرافعي بحق -وكما قيل- كلمة، إسلامية جامعة تتلخص في الدعوة إلى الإسلام وفضائله، ومازال أدبه صفحة ناصعة من صفحات الإسلام، وحجة باهرة من حجج الشرق والعروبة في عصر فقير من الأقلام المجاهدة وليس فى الأدب الحديث مثيل لأدبه الإسلامي الرفيع، الذي حمل فيه لواء الدفاع عن الإسلام والشرق بعامة، وعن وطنه مصر بخاصة وكان أعظم ما يكون قوة وانطلاق حجة وتأثيرًا حين كان يكتب عن الإسلام شارحًا أو مدافعًا."[2]

وكانت الجماهير تتابع أدبه متابعة الظل لصاحبه، وكان أدبه صدى عميقًا لعصره، وصورة رائعة لمجتمعه وبيئته.

وكانت وفاة الرافعي في يوم ١٤ مايو سنة ١٩٣٧م بمدينة طنطا عن سبعة وخمسين عامًا، كانت كلها ألوانًا متعددة من الكفاح المتواصل في الحياة والأدب والوطنية.

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور/ شوقي ضيف، ص ٢٤٧.

(٢) دراسات في الأدب العربي المعاصر للأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي ص١٦٢ .

النص المختار

فلسفة المهر

جلس الشيخ[1] في حلقته في مسجد رسول الله ﷺ للحديث والتأويل، فسأل رجل من عرض[2] المجلس، فقال: يا أبا محمد، إن رجلًا يلاحيني[3] في صداق ابنته، ويكلفني ما لا أطيق. فما أكثر ما بلغ إليه صداق أزواج رسول الله ﷺ وصداق بناته؟

قال الشيخ: روينا أن عمر ﷺ كان ينهى عن المغالاة في الصداق، ويقول: "ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوَّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم"، ولو كانت المغالاة[4] بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ. وروينا عنه ﷺ أنه قال: "خير النساء أحسنهن وجوهًا، وأرخصهن مهورًا".

فصاح السائل: يرحمك الله يا أبا محمد، كيف يأتى أن تكون المرأة الحسناء رخيصة المهر، وحسنها هو يغليها على الناس؛ تكثر رغبتهم فيها؛ فيتنافسون عليها؟

قال الشيخ: انظر كيف قلت؟ أهم يساومون في بهيمة لا تعقل، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بضاعة من مطامع صاحبها يغليها على مطامع الناس؟ إنما أراد رسول الله ﷺ أن خير النساء من كانت على جمال وجهها، في أخلاق

---

(١) المقصود بالشيخ –هنا–: أبو محمد سعيد بن المسيب، إمام التابعين وفقيه أهل المدينة.

(٢) عرض المجلس: جانبه .

(٣) يلاحيني: ينازعني ويخاصمني.

(٤) المغالاة في المهور: المبالغة فيها .

كجمال وجهها، وكان عقلها جمالًا ثالثًا؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء، يسرت عليه، ثم يسرت، ثم يسرت؛ إذ تعتبر نفسها إنسانًا يريد إنسانًا، لا متاعًا يطلب شاريًا. وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها، إلا دليلًا على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها، أي: لحمقها، وهي بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن.

ولقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان الأثاث: رحى يد[1] ، وجرة ماء[2] ، ووسادة من أدم حشوها ليف. وأوْلَم على بعض نسائه بمُدَّين من شعير، وعلى أخرى بمدين من تمر وبمدين من سَوِيق[3]، وما كان به ﷺ الفقر، لكنه يشرِّع بسنته ليعلم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفس لنفس، لا متاع لشاريه.

والمتاع يقوَّم بما بُذل فيه إن غاليًا وإن رخيصًا، ولكن الرجل يقوَّم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس الذي تأخذه قبل أن تُحمل إلى داره، ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره؛ مهرها معاملتها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس رجُلها ما دامت في معاشرته. أما ذلك الصداق من الذهب والفضة، فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا

(١) الرحى: الأداة التي يطحن به .

(٢) الجرة: إناء من الخزف .

(٣) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير .

على النفس؛ أفلا تراه[1] كالجسم يهلك ويبلى؟ أفلا ترى هذه الغالية –إن لم تجد النفس في رَجُلها– قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟!

وما الصداق في قليله وكثيره، إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها، فهو إيماء، ولكن الرجل قبل. إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفًا، والسيف إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوي السيوف سواء، وقد يحمل الجبان في يده سيفًا، ويملك في داره مائة سيف، فهو إيماء، ولكن البطل قبل، ولكن البطل قبل.

مائة سيف يمهر بها الجبان قوته الخائبة، لا تغني قوته شيئًا، ولكنها كالتدليس على من كان جبانًا مثله. ويوشك أن يكون المهر الغالي كالتدليس على الناس وعلى المرأة، كي لا تعلم ولا يعلم الناس أنه ثمن خيبتها؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيسر مهرها، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله، وكفت[2] حماقتها أن تفسد عليه.

فصاح رجل في المجلس: أيها الشيخ، أفي هذا من دليل أو أثر؟

قال الشيخ : نعم ؛ أما من كتاب الله فقد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾[3]. فهي زوجُه حين تجده هو لا حين تجد ماله؛ وهي زوجه حين تتمه لا حين تنقصه، وحين تلائمه لا حين

---

(١) الضمير في قوله: أفلا تراه يعود على الصداق .

(٢) كفت: منعت .

(٣) سورة الأعراف : جزء من الآية ١٨٩ .

تختلف عليه؛ فمصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها، فيكونان معًا كالنفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه؛ يريد من جسمه الحياة لا غيرها.

وأما من كلام رسول الله ﷺ فقد روينا: "إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير". فقد اشترط الدين، على أن يكون مرضيًّا، لا أي الدين كان؛ ثم اشترط الأمانة، وهي مظهر الدين كله بجميع حسناته، وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أمينًا، وعلى حقوقها أمينًا، وفي معاملتها أمينًا؛ فلا يبخسها(١) ، ولا يُعْنتها(٢) ، ولا يسيء إليها؛ لأن كل ذلك ثَلْم في أمانته(٣) ؛ فإن ردت المرأة مَن هذه حاله وصفته من المهر- تقدم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته، فوقعت الفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هو بها، وفسد النسل بهما جميعًا، وأهمل من لا يملك، وتعنست(٤) من لا تجد، ويرجع المهر -الذي هو سبب الزواج- سببًا في منعه، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة؛ فيقع معنى الزواج، ويبقى المعطل منه هو اللفظ والشرع.

هل علمت المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها، وتبلو فيه بلاءها؟ وهل يقوم مال الدنيا بحقها فيما تعمل وما تجاهد، وهي أم

---

(١) يبخسها: يظلمها أو لا يوفيها حقها.

(٢) يعنتها: يشق عليها.

(٣) ثلم في أمانته: طعن ونقص فيها.

(٤) تعنست : لم تتزوج ، يقال : عنست البنت البكر إذا طال مكثها فى بيت أهلها بعد إداركها، ولم تتزوج، فهى عانس ، والجمع عنس وعوانس . انظر: المعجم الوسيط : مادة " عنس " .

الحياة ومنشئتها وحافظتها؟ فأين يكون موضع المال ومكان التفرقة في كثيره وقليله، والمال كله دون حقها؟ ولن يتفاوت الناس بالمال – تختلف درجاتهم به، وتكون مراتبهم على مقداره، تكثر به مرة وتقل مرة– إلا إذا فسد الزمان، وبطلت قضية العقل، وتعطل موجب الشرع، وأصبحت السجايا تتحول، يملكها من يملك المال، ويخسرها من يخسره؛ فيكون الدين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه، والمتدلي في غير حقه؛ وبهذا يرجع باطل الغنى دِينًا يتعامل الناس معه، ودين الفقير بهرجًا[1] لا يروج عند أحد؛ وليس هذا من ديننا، دين النفس والخلق، وإن ألف بعير يقنوها [2] الرجل خالصة عليه، ثابتة له، لا تزيد في منزلة دينه قدر أنملة ولا ما دونها.

وهلاك الناس إنما يقضى بمحاولتهم أن يكونوا أناسًا بعيوبهم وذنوبهم؛ فهذا هو الإنسان المدبر عن الله وعن نفسه وعن جنسه؛ ولا يكون أبوه أبًا في عطفه، ولا أمه أمًّا في محبتها، ولا ابنه ابنًا في بره، ولا زوجته زوجة في وفائها ؛ يكونون له مهالك، كما روينا عن رسول الله ﷺ: "يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده؛ يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق؛ فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك".

وصاح المؤذن، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة، ثم خرج إلى داره، فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره، قالت: يا أبت كنت أتلو الساعة قوله

---

(١) بهرجًا: باطلا .

(٢) يقنوها: يكتسبها ويملكها .

تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حسنة ﴾[1] فما حسنة الدنيا؟ قال: يا بنية، هي التي تصلح أن تذكر مع حسنة الآخرة، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة، ولا للمرأة ... وطُرق الباب، فذهب الشيخ يفتح، فإذا الطارق عبد الله ابن أبي وداعة -وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته، ولكنه فقده أيامًا- فدخل فجلس. قال الشيخ: أين كنت؟ . قال: تُوفيتْ أهلي فاشتغلتُ بها.

قال الشيخ: هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ ثم أخذ يفيض في الكلام عن الدنيا والآخرة؛ وشعر ابن أبي وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ، فأراد أن يقوم، فقال سعيد: هل استحدثت امرأة غيرها؟ قال: يرحمك الله، أين نحن من الدنيا اليوم، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟

قال الشيخ: أنا.

أنا، أنا، أنا ... دوى الجو بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيدًا في تسبيح الله يَطِنّ[2] لحنه: أنا، أنا، أنا ...

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد، وكأنها كلمة زوجته إحدى الحور العين. فلما أفاق من غشية[3] أذنه، قال: وتفعل؟ . قال سعيد: نعم، وفسر نعم بأحسن تفسيرها وأبلغه؛ فقال: قم فادع لي نفرًا من الأنصار، فلما جاءوا حمد الله وصلى على النبي ﷺ، وزوجه على

---

(١) سورة البقرة : جزء من الآية ٢٠١.

(٢) يطن: يرن ويجلجل، يقال: طن يطن طنًا وطنينًا أي: صوت ورن، ويقال خطبة أو قصيدة أو مقالة لها طنين أي: لها صدى وذكر وجلجلة في المحافل وغيرها.

(٣) الغشية: الغطاء، كأن على أذنيه غطاء فلا يكاد يسمع.

ثلاثة دراهم. ثلاثة دراهم مهر الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة العظيم[١] لولي عهده بثقلها ذهبًا لو شاءت.

التعليق على النص:

يتناول الرافعي في هذا المقال قضية المهر أو الصداق، وهي قضية دينية اجتماعية تحظى باهتمام المجتمع كله شبابًا وشيوخًا، ورجالا ونساءً، وتؤثر -إلى حد كبير- في أمنه واستقراره.

وعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية لم تضع -على الأرجح[٢]- حدًا لأقل المهر ولا لأكثره -فإنها قد دعت إلى التيسير في أمر الزواج، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ : " إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة[٣] "، وقال: "يمن المرأة: خفة مهرها، ويسر نكاحها، حسن خلقها، وشؤمها: غلاء مهرها، وعسر نكاحها ، وسوء خلقها"، وذلك لما يترتب على المغالاة في المهور من

(١) كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أرسل يخطب ابنة سعيد لولده وولي عهده الوليد ابن عبد الملك، فأبى سعيد يزوجها إياه، وزوجها لطالب العلم الفقير عبد الله بن أبي وداعة .

(٢) جمهور الفقهاء على أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئًا له قيمة، بقطع النظر عن القلة والكثرة، فيجوز أن يكون خاتمًا من حديد، أو قدحًا من تمر، أو تعليمًا لكتاب الله، وما شابه ذلك إذا تراضى عليه المتعاقدان. وقد قدَّر الأحناف أقل المهر بعشرة دراهم، وقدَّره المالكية بثلاثة دراهم، غير أن هذا التقدير لا يستند إلى دليل يعول عليه ولا حجة يعتد بها. انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق: ج٢، ص ١٣٥، ١٣٦.

(٣) المؤنة: النفقة، وأيسره مؤنة أيسره صداقًا ونفقة.

إحجام الشباب أو عدم قدرتهم على الزواج، فتضيع بذلك مقاصد الشريعة الرامية إلى العفاف وحفظ النسل.

وقد رأى الرافعي أن كثيرًا من الناس قد حادوا عن جادة الصواب، وتعلقوا بعادات الجاهلية من المغالاة في المهور والإفحاش فيها، والتباهي بها، وكأن المرأة سلعة يساوم عليها، ويتجر بها، مما أدى إلى كثرة الشكوى، وعانى الناس من أزمة الزواج التي أضرت بالمجتمع كله رجالا ونساء، ونتج عنها كثير من الشرور والمفاسد، وكسدت سوق الزواج، وأصبح الحلال أصعب منالا من الحرام.[1]

وقد أكد الرافعي في أكثر من موضع من مقاله –أن قيمة الإنسان لا تقاس بثرائه وكثرة ماله، إنما تقاس –أول ما تقاس– بدينه وخلقه، وحسن معاملته، وأن الاختيار في الزواج ينبغي أن يكون على أساس الدين" إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته[2] فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير "

فالرجل ينبغي أن يقوَّم عند المرأة – كما جاء فى مقال الرافعى – بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تُحمل إلى داره، ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره؛ فمهرها معاملتها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس رجُلها ما دامت في معاشرته.

يكشف المقال عن شخصية الرافعي وخصائص كتابته على النحو الآتي:

---

(١) فقه السنة للشيخ/ سيد سابق: ج٢: ص ١٣٨: ١٣٩ .

(٢) وفي رواية أخرى: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه ..." الحديث .

(أ) تظهر من خلال المقال شخصية الرافعي الإسلامية متمثلة في اختيار الموضوع، وطريقة معالجته، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم، والسنة النبوية قولا وعملا، والمأثور عن صحابة رسول الله ﷺ مع قوة الاستدلال، وحسن الاستنباط، وليس ذلك بمستغرب من رجل كالرافعي نشأ في أسرة لها من الثقافة الإسلامية والقضاء الشرعي نصيب وافر، وتربى في حجر والد أفنى حياته كلها في هذا الدرب من القضاء، فأشربه روح الإسلام وتعاليمه.

وحتى يعطي الرافعي مقاله لونًا من القوة والأصالة أجراه على لسان إمام التابعين وفقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب، وأخرجه مخرج القصة، ولم يكتف بما ساقه من أدلة وبراهين على تأكيد وجهته، بل انتقل من حيز النظرية إلى حيز التطبيق، فمثل له بما كان من سعيد بن المسيب الذي انحاز إلى جانب الدين؛ فزوج ابنته طالب العلم -الفقير مالا الغني نفسًا- عبد الله بن أبى وداعة، وأبى أن يزوجها ولي عهد المسلمين وابن خليفتهم، الوليد عبد الملك بن مروان، قائلا لمن جاءه خاطبًا للوليد: ما رغبت عن صاحبك إلا لأني مسئول عن ابنتي، وقد علمت أنت أن الله يسألني عنها في يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين، وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها، يخرجون من حساب الفجرة إلى حساب القتلة، ومن حساب هؤلاء إلى حساب أهل البغي، إلى حساب التفريط في حقوق المسلمين. ويخف يومئذ عبيدها وأوباشها ودعارها وفجارها في زحام الحشر،

ويمشي أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهم، وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد.

(ب) وتظهر في هذا المقال خصائص الرافعي من الغوص وراء المعانى، والتعمق فيها واستقصائها حتى ليخيل إلينا أنه لم يترك فكرة أو معنى يتصل بموضوعه إلا تناوله أو ألم به.

كما نراه يتميز بشدة التأمل والملاحظة والتوليد في فكرته، وبسلامة المنطق، وجودة التقسيم، وانتقاء الألفاظ، وكثرة التأنق في الصنعة.

"والذي لا شك فيه أنه كان يكتب في حذر شديد، فهو لا يكتب كل ما يفد على ذهنه، بل مازال ينتخب ويختار، ينتخب المعاني، ويختار الألفاظ، محتاطًا في ذلك أشد الاحتياط، وكأنه لم يكن يريد أن يكون أديبًا فحسب، بل كان يريد أن يكون أديبًا ممتازًا بفكره العميق وعبارته الدقيقة، ومن ثم آثر في أدبه ومقالاته الجهد العنيف والعناء الشاق، حتى يصبح حقًا من راضة المعاني وصاغة الكلام" [1]

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور/ شوقي ضيف، ص ٢٥١.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
اللغة العربية لحافظ	
غربة وحنين إلى الوطن لأمير الشعراء أحمد شوقي	
من وحي القلم للرافعي	